دور الدّراسَات الأدبيّة (*) في تشويه التاريخ الإسلامي

من الحقائق المقررة التي تأخذ صورة البدهيات التي لا تقبل المناقشة -أن الأدب صورة ومرآةٌ للمجتمع وللبيئة التي ينشأ فيها- ومن هنا صار معدوداً من أهم مصادر التاريخ وأصدقها.

ولكن هذا القولَ الذي أخذ صورةَ البدهيات والحقائق الثابتة. هذا القول ليس على إطلاقه ، فليس الأدبُ صورة تسجيلية للبيئة والمجتمع ، وإنما هو فن يلتقط بعض القطاعات من المجتمع ، فيصورها الأديب من داخل نفسه ، متأثراً بانفعالاته وعواطفه تجاه ما يصوّر، ومن هنا نجد المادحَ والقادحَ في نفس الوقت ،للعمل نفسه ، وللتصرف نفسه.

وعلى ذلك ، فالمؤرخ الذي يجعل الأدبَ - أيّاً كان الفن الأدبي الذي يلجأ إليه - مصدراً من مصادره يجبُ عليه أن يكون في منتهى اليقظة والحذر. فعندما يستشف سمات العصر من الأعمال الأدبية ، عليه أن يحيط بكل الأعمال الأدبية إحاطةً شاملةً ، ثم عليه أن يفسرها في ضوء تمثله واستبطانه لحياة رجال ذلك العصر، والروح التي توجههم وتسيطر عليهم ، ولا ينسى

(*) أعدت هذه الدراسة في نحو سنة ١٩٨٢م لتقدم إلى المسئولين عن المناهج في جمهورية مصر العربية ، ثم نشرت مؤخراً في مجلة الأمة الأولى العدد السابع- رجب ١٤٠١هـ-مايو ١٩٨١م

طبعاً باقي المصادر التاريخية الأخرى.

الدراسات الأدبية في حاجة إلى يقظة ووعي بآثارها:

وإذا كان هذا واجباً عند اعتماد الأدب مصدراً من مصادر التاريخ ، فهو أيضاً واجبٌ عند الدراسات الأدبية البحتة ، وعند تفسير الظواهر الأدبية المختلفة ، فقد تكون الدراسة الأدبية دراسةً فنية بحتة ، ولكنها في الوقت نفسه تؤكد حقائق تاريخية بصورةٍ غير مباشرة ، وفي هذه الحالة تكون أكثر تأثيراً ، وأبعد خطراً.

ومن هنا كانت الدراساتُ الأدبية في حاجة إلى يقظة تامة ، ووعي كامل بهذه الآثار التي تترتب عليها أو تُفهم منها.

والدراسة التي نقدمها اليوم هي عن (كتاب الأدب والنصوص الأدبية) للصف الأول الثانوي(١)، وبادىء ذي بدء نقول : إننا لا نتهم واضعي المنهج ولا مؤلفي الكتاب في دين ولا صدق نية ، ولا في الغَيْرة على الأمجاد والأجداد ، فهم جميعاً فوق الشبهات -بل هم أيضاً ضحايا لذلك الفكر الخبيث الذي تسلل إلى أعماق ثقافتنا ، وأصبح من البدهيات المسلم بها ، بل إن وقوع هؤلاء في هذه الوهدة ، وهم من أصحاب الثقافة العربية والإسلامية ، والدين ، دليل على خطورة هذا السّم الذي تسلل إلى الدماء ، حتى صار جزءاً من تكويننا الفكري ، نؤمن به ونردده وندافع عنه.

فلنستعرض هذا الكتاب :

يدرس هذا الكتابُ فترات ثلاثاً من تاريخ الأدب العربي أو عصوراً ثلاثة هي: العصر الجاهلي ، وعصر صدر الإسلام ، والعصر الأموي ، وهو يعرض نماذج من أدب هذه العصور، يدرسها ويحللها، ويحفظ منها التلاميذ نحواً من نصفها ، فكيف عالج الكتاب كلَّ عصرٍ من هذه العصور؟؟ وبأي روح؟؟

(١) المقصود : الكتاب الذي يدرّس بمصر ، وإن كانت كل البلاد العربية لا تختلف عنه كثيراً ولا قليلاً ، ولست أدري أذلك أثر من آثار اتفاقية الوحدة الثقافية ، أم أثر للبصمات الأولى التي وضعها دنلوب وتلاميذه . وما زالت تسيطر على مناهجنا وكتب مدارسنا في كل العالم العربي.

العصر الجاهلي :

حين ننظر في أدب هذا العصر نجد النصوص المختارة تحمل العناوين الآتية:مآثرُ عربية - فروسية - دعوة إلى السلام - فخرٌ واعتزاز بالنصر على الفرس - قيمٌ خلقية - في الحفاظ على الكرامة - من صور الكرم - قيادةٌ حكيمة - طريق السيادة والشرف - إكرام الحجيج - وصية أم لابنتها.

هذه هي القسمات البارزة أو الملامح العامة للعصر الجاهلي ، ويزيدُها الشرح وضوحاً وتأكيداً ، فتقرأ في شرح النص الثاني(مآثر عربية) ص ١٢ مايلي : إنهم أسبقُ الناس إلى المكرمات وإن غيرهم لا يلحق بهم .. وإن الشرفَ صفة أصيلة فيهم .. إنهم أهل جد وخشونة ، وأهل كرم وبذل ، وأهل عزة ومنعة.

وفي ص ٤٤ يقدم الكتاب لأبيات المثقّب العَبْدي بقوله: وقد كان للمجتمع الجاهلي مآثر ومفاخر يتغنى بها ويتطلع إليها ، وأنت في الأبيات أمام بعضٍ من هذه التجارب والخصال الطيبة - ثم يسمعنا صوت شاعر الجاهلية قائلاً:

لا تقولَنَّ إذا ما لم تُرد
أن تُتم الوعد في شيء . نعم
حسنٌ قولُ (نعم) من بعد (لا)
وقبيحٌ قولُ (لا) من بعد (نعم)
لا تراني راتعاً في مجلسٍ
في لحوم الناس كالسبع القَرِم

ويعلق على النص بقوله ص ٤٥: والأبيات -كما ترى- تدور حول تمجيد الشاعر للوفاء بالوعد ، والحرص على تنفيذه ، والترفّع عما يعيب وينقُص من الكرامة.

وفي ص ٤٨ يقدم لأبيات أخرى بقوله(وقدّر العربي أن هذا الموقفَ الذي يتعرض له غيره ، قد يتعرض له هو ، ولهذا بذل الطعام للضيف ، واحتفى

به، ونحر له الإبل - وكان الكرمُ من الفضائل الأصيلة التي اعتز بها العربُ وتغنى بها شعراؤهم).

وفي ص ٥٨ نراه يعلّق على أبيات الشنفري قائلاً:(في الأبيات ثورة على الظلم، ودعوة إلى التحول عن مواطنه ، وإلى احتمال الآلام في سبيل الإبقاء على عزة النفس ، والحفاظ على الكرامة)، ويستمر التعليق إلى أن يقول : (عُرف الشنفرى بأنه من الشعراء الصعاليك ، وكثيراً ما يتبادر إلى الذهن أن الصعلكة صَغار في النفس ، وفي التصرف ، ولكن الأبيات تُلقي لك ضوءاً على شخصية الشنفري ، وحفاظه على كرامته ، ومنها ومن تاريخ هؤلاء الصعاليك ، يظهر أنها اختلاف في وجهات النظر إلى الحياة).

هكذا دفاع وتبرير للصعلكة - بل مدح لها !!

ونقرأ في ص ٧١ تعليقاً على أبيات للأعشى يمدح فيها قيسَ بنَ معديكرب الكِنْدي. يقول التعليق :(عرض علينا الشاعر في أبياته صورةً للقيادة الحكيمة ، متمثلة في شخص ممدوحه ، فهو رجل جواد سمحُ الخلق .. وهي صفات إنسانية خالدة، لا تتغير بتغير العصور).

وفي ص ٧٩ يعرض علينا الكتابُ (طريق السيادة والشرف) يرسمها لنا الحكيم الجاهلي ، في وصيته بالسماحة والكرم ، ولين الجانب والإيثار ، والتضحية والنجدة.

وننتقل إلى ص ٨١ فنرى صورة الإكرام للحجيج ، يدعو إليه هاشمُ بنُ عبد مناف ، ويستحلف قومَه بحرمة الكعبة ، أن يكرموا الحجاج ، وأن يعينوه على ذلك.

وفي ص ٨٣ يعلق على الخطبة تعليقاً جاء فيه «وهو يقدر قداسة الموقف؛ فيُلح عليهم ألا يقدموا لضيوف الله ما لا يرضاه من مال خبيث ، لا خير فيه».

وفي ص ٨٥ ترى أماً توصي ابنتَها عند زفافها « بنصائحَ تساعدُها على أن تنجحَ في حياتها الزوجية ، وتصوّرُ هذه الوصية جوانبَ واضحةً من شخصية (أمامة) بعقلها واتزانها ، وخبرتها بنفس الرجل في المجتمع الذي

تعيش فيه .. وتعتمد على الإقناع العقلي أكثر مما تعتمد على الإثارة العاطفية - والسائد فيها توضيحُ الفكرة، والتعليلُ لها ».

وفي ص ٨٩ نرى هانىء بن قُبيصة الشيباني ، يعبيء العرب لمعركة النصر ضدّ الفرس ، وفي ص٩٢ نرى صورةً من (السفارة بين القبائل) فتسمع لعبد المطلب بن هاشم يهنىء سيفَ بن ذي يزن ، بنجاحه في تطهير أرض اليمن من الأعداء ، ويتحدث عن سعادة الجزيرة العربية بذلك.

وعند الحديث عن (خصائص الأدب الجاهلي) وفنون هذا الأدب وأغراضه نرى التعاطف مع هؤلاء الجاهليين واضحاً جلياً ، فتفسير الظاهرات الأدبية ينطوي على تمجيدهم ، وتعظيمهم ، «فالمدحُ يمتاز بإيثار الصدق ، وعدم المبالغة، أو الفناء في الممدوح ، ويدفع إليه العرفان بالجميل ، أو الرغبةُ في الكسب».

وأما الفخر « فالعربي مقتصد في فخره ، غيرُ نزّاع إلى المغالاة المسرفة» و«أما رثاء الجاهلي، فيتميز برهافة الحس وصدق العاطفة ، والبعد عن التهويل» و«أما الاعتذار، فقليلٌ في الشعر الجاهلي؛ لأنه لا يتفق مع إباء العربي واعتداده بنفسه».

و «أما الحِكم ، فقد ساقها الشعراء صدى لصفاء فطرتهم ، وكثرة تجاربهم. وقدرتِهم على استخلاص وجه العبرة مما يمر بهم ، وقد اجتمعت للعربي سلامةُ الفطرة، وصفاء البصيرة ، ودقةُ الملاحظة ، ولهذا أجاد في حكمه»

هكذا في هذا الجزء من الكتاب نجد المؤلفين - بعد أن أفرغوا جهدهم في الاختيار والانتقاء للنصوص الأدبية الجاهلية- يجردون أقلامهم ، ويُشرعون أسنتَها في حماس واندفاع ؛ للذود عن الجاهلية والجاهليين، والمجتمع الجاهلي، وتجلية صورته ، وإبرازها في أروع إطار- وإن كنا نقول ذلك استنتاجاً منطقياً ، مما رأيناه من مقدمات ، فقد قاله المؤلفون صراحة ، حين أكدوا أنهم لا يفعلون ذلك اتفاقاً أو مصادفة ، بل هم يأخذون هذا الموقفَ عن وعيٍ وقصد، إذ يقولون في مقدمة الكتاب، ص٣ «**ومن بين النصوص**

التي آثرناها بالاختيار،ما يصحح النظرة إلي الأدب الجاهلي، وإلى ما فيه من قيم اجتماعية وإنسانية خالدة تجاوز النظرة الحسّية والفردية، التي طالما زعم الزاعمون أن أدب ذلك العصر يدور في نطاقها» كذا قالوا !! هذا هدفهم ، وغرضهم

هذا ما رأيناه من ملامح العصر الجاهلي ،وما رأيناه من اتجاه الكِتاب وهدفه.

العصر الإسلامي :

فماذا عن العصر الإسلامي والأموي؟ عندما يتناول المؤلفون هذا القسم من الكتاب تتبدل الأحوال ، وتختلف ُ الأهداف ، ويغيب الوعي بقيمة العصر الإسلامي، وتغيم ملامحُهُ وقسماتهُ - بل تشوه وتحرف ، عن طريق الاجتزاء والتجهيل - فحين ننظر إلى أدب الإسلام وبني أمية نرى النصوص التي تحمل العناوين الآتية:

- تهديد ووعيد .
- علي يستنفر أصحابه لقتال معاوية.
- الكُميت يمدح الهاشميين ، ويسب بن أمية.
- عبد الله بن قيس الرقيات يأسى لتفرق قريش ، ويمدح الزبيريين.
- قَطري بن الفجاءة يحمس الخوارج لقتال الشيعة والأمويين معاً.
- الفرزدق يهجو جريراً.
- جريرٌ يرد على الفرزدق.
- الأحطل يمدح بن عبد الملك .
- أبو حمزة الشاري يدافع عن أصحابه.
- الحجاج يهددُ أهلَ البصرة.
- غزل لعمر بن أبي ربيعة.
- غزل لابن الدمينة.
- غزل لجميل بثينة.
- زفرةُ شاعر يتطلع إلي الجهاد.

وتقرأ في الشرح والتعليق ، والتقديم لهذه النصوص بأقلام السادة المؤلفين ، ما يؤكد مضمون هذه النصوص ، ويبرز ملامحَها وإشارتها التاريخية، ونعرض فيما يلي نماذج لهذا التناول العجيب :

يطالعنا في ص ١٠٧ عنوان (الفتوح الإسلامية وأثرها) وتحت هذا العنوان نقرأ:(ما كاد العرب يتوحدون في ظل الراية الإسلامية. ويُقيمون دعائمَ دولتهم الناشئة ، حتى اتجهت أنظارهم إلى فتح الأقطار المجاورة لهم ، تلبيةً لداعي الجهاد في سبيل نشر الرسالة الإسلامية » كذا - وكأن الإسلام لم ينتشر إلا بهذه الفتوحات .

ثم نقرأ في الصفحة نفسها:« وقد كانت قوة العرب الحربية تُستنفد من قبل ، في قتال القبائل ، بعضِها بعضاً ، فلما وحدهم الإسلام ، وجمع كلمتَهم ، تجلت مقدرتُهم الحربية الرائعة ، فإذا هم في سرعة لا نظير لها في تاريخ الحروب. يكتسحون الأقطار المجاورة لهم» ثم يقول في نفس الصفحة أيضاً:« وكان لحركة الفتوح أثرُها في حياة العرب الاقتصادية والاجتماعية ، فقد كثرت موارد الدولة».

وهكذا يحدد أهداف الجهاد ، ويفسر أسباب هذا الصراع بين الإسلام والكفر، بأنه لصرف القبائل عن النزاع بين بعضها وبعض ، ولنهب موارد وثروات البلاد المفتوحة ، ولنشر الإسلام

ويطالعنا في رأس الصفحة ١٠٩ عنوان:« الأحزاب السياسية والعصبية القبلية» وتحت هذا العنوان نقرأ «في عهد الرسول العربي»(كذا) توحدت القبائل في دولة واحدة ، وكانت العصبية القبلية تفتت هذه الوحدة ، ولذلك وجه الإسلام همه إلى محاربتها ، ولكن لم يكن من الميسور القضاء عليها قضاء تاماً .. وأطلت العصبيةُ القبليةُ برأسها في الخلاف بين المهاجرين والأنصار ، على الخلافة بعد موت الرسول عليه السلام .. وظهرت ثانية في الصراع السياسي ، وفي التنافس على الخلافة بين الأسرتين الهاشمية والأموية بعد مقتل عثمان عام ٣٥ هـ . وتولى علي بن أبي طالب الخلافة ، وخرج عليه طائفة من أنصاره عرفوا بالخوارج .. وقُتل علي بيد أحدهم عام ٤٠هـ وبذلك تم الأمر لمعاوية ولآل بيته ، ولكن الأمر لم يصف لهم طوال مدة حكمهم ، بل

كثرت في عهدهم الثورات والاضطرابات - ومردّ ذلك إلى أمرين بارزين العصبية القبلية ، والأحزاب السياسية - وكان أبرز هذه الأحزاب : حزب بني أمية ، وحزب الشيعة وحزب الخوارج ، وأنصار عبد الله بن الزبير، وكان لكل حزب شعراؤه وخطباؤه الناطقون بلسانه.

تلك هي الخطوط البارزة في الحياة العامة لهذا العصر ، وسنقف على أثرها الجلي فيما نقدمه لك من نصوص العصر الإسلامي شعراً ونثراً».

انظر تلك هي الخطوط البارزة في الحياة العامة لهذا العصر، نزاعُ بين المهاجرين والأنصار، وردّة إلي القبلية ، وحزبية متصارعة ، وقتلٌ لخلفاء الرسول، ودهاءٌ ومكرٌ من معاوية ، وإفساد لنظام الحكم ، وما على المؤلفين بعد ذلك إلا حفر هذه الخطوط وتعميقها في وجدان أبنائنا اليافعين ، وفي أذهانهم عن طريق اختيار النصوص الأدبية التي تصور ذلك ، ودراستها وتحليلها وحفظها.

ولنقلّب بعضاً من صفحات هذا الكتاب، لنعرض نماذجَ تُبين عن الروح التي كُتب بها الكتاب ، وعن الأثر الذي يتركه في تلاميذنا.

في ص ١٢٣(الأخطل يمدح عبدَ الملك بن مروان ، ويُشيد ببني أمية ، فانظر كيف قدم الكتاب لأبيات الأخطل:«منذ وَلي الأمويون شئونَ الخلافة ، عملوا على اجتذاب الشعراء إليهم ، لكي يكونوا ألسنةً للدولة الأموية ، يؤيدون حكمها، ويدفعون عنها خصومَها السياسيين الطامحين إلى تولي الخلافة.

وقد استجاب لهم كثيرٌ من كبار الشعراء في هذا العصر ، فراحوا يمجدون الدولة الأموية ، ويدعون لها ، ويهاجمون خصومَها والمناوئين لسياستها، وكان الأخطل من أبرز الشعراء الذين وقفوا إلي جانب الأمويين يهاجم خصومَهم في عنف وشدة »

واسمع أيها التلميذ العزيز كيف بدأ شراء الأقلام والألسنة عند أجدادك، منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً.. ويعلق على الأبيات نفسها بقوله

في ص ١٢٧« وهذا النص يصور لك جانباً من جوانب الحياة السياسية في عصر بني أمية ، ولوناً من ألوان النضال السياسي بينهم وبين منافسيهم على تولي الخلافة »

وحين يعرض لقصيدة عبد الله بن قيس الرقيات يقول مقدماً لها في ص ١٢٩ (أوصى معاوية بأن تكون الخلافةُ بعده لابنه يزيد ، فلم يرضَ ذلك طائفةٌ من أشراف قريش ، فلما مات معاوية ، وولي الخلافةَ يزيدُ. امتنع عبدُ الله بن الزبير بمكة أن يبايعه ، وأنكر على الأمويين استئثارهم بالخلافة ، وشايعه أهل الحجاز ، وقوي حزبه، وكان بينه وبين الأمويين تنافس شديد».

وفي ص ١٣٢(نرى الكُميت بنُ زيد يمدح الهاشميين) ويقدم المؤلفون للأبيات بقولهم: « كان بين الأمويين وغيرهم من الأحزاب السياسية ، التي ترى أنها أحق من بني أمية بالخلافة صراعٌ ، وكان من أقوى هذه الأحزاب بنو هاشم ، الذين ناضلوا الأمويين نضالاً شديداً، واشتبكوا معهم في صراع سياسي ، وكان الكُميتُ أحدَ الشعراء الذين خاضوا المعركة السياسية مع بني هاشم منتصراً لهم ، مؤيداً حقّهم في طلب الخلافة ، غير مبالٍ بما يناله من عسف الأمويين وأذاهم ، بل إنه ليحتسبُ كلّ ما يناله من أذى أجراً عند الله .. والأبيات من قصيدة طويلة ، تُعد من خير قصائد الكميت ، وأروعها في نصرة الهاشميين » انظروا أيها الأبناء : معركة سياسية ، وأحزاب ، وعسف، وإيذاء واستبداد !!! هذا تاريخكم !!!!

وفي ص ١٣٧ يزيد هذه الفكرة وضوحاً وتأكيداً ، حين يعلق على القصيدة بقوله «وتصور لك القصيدة جانباً من الحياة السياسية في عصر بني أمية، ومن الصراع على الخلافة وتدلك على شيء من الحجج والبراهين التي يستند إليها الأمويون والهاشميون».

وفي ص ١٣٩ نرى قطريَّ بنَ الفُجاءة يدعو الخوارجَ للثبات والتضحية بالنفس ، في سبيل القضاء على الأمويين والشيعة .. ويقدم الكتابُ للأبيات بقوله:«انقسم الخوارجُ فرقاً متعددة ، وكان الأزارقةُ من أشد هذه الفرق استبسالا في قتال أعدائهم ، وتطرفاً في مذاهبهم ، وقوى أمرهم بعد موت يزيد بن معاوية» ، فيضيف هنا خطأ آخر إلى ملامح المجتمع السابقة.

وعندما يعرض لأبيات الفرزدق التي يسبُّ فيها جريراً ص ١٤٣ ، نراه يقدم لها بقوله :«من الظواهر الأدبية التي وضحت في عصر بني أمية المعركةُ الهجائية التي نشبت بين الشعراء ، وشُغل بها الناس ، وعلماءُ اللغة، وكان من أهم دوافع هذه المعركة التنافس الشخصي والقبلي ، والانتماءُ إلى الأحزاب السياسية المتصارعة ، وكان من أكثر الشعراء الذين خاضوا هذه المعركةَ الأخطلُ والفرزدقُ وجريرٌ » ، ثم يعلق على القصيدة مبيناً عواملَ ظهور النقائض ، فيقول في ص ١٤٥ « وغض بنو أميةَ أبصارُهم عن مثل هذا الهجاء .. حتى شاع هذا اللونُ من الشعر في العصر الأموي شيوعاً ، لا نجد له نظيراً في سائر عصور الأدب العربي ، ولم يعد الهجاء بيتين أو أبياتاً قليلة ، كما كان في الجاهلية ، بل أصبح قصائدَ طويلةً، تحتاج إلى ثقافةٍ واسعة بتاريخ القبائل العربية في الجاهلية» كذا !!! ازدهر الهجاء في أيام الإسلام ولم يكن في الجاهلية إلاأبياتاً قليلة . وانظر غض بنو أمية أبصارهم عن مثل هذا الهجاء» أي شجعوا ذلك إلهاءً للعامة حتى يُخلّوا بينهم ، وبين دنياهم.

وفي ص ١٧٥ نرى الإمامَ علياً يستنفر أصحابَه لقتال معاوية. وانظروا التقديم للخطبة :حدث في أعقاب مقتل عثمانَ خلافٌ بين علي ومعاويةَ بنِ أبي سفيانَ على الخلافة ، وكان معاوية يتطلع لها ، وكان له قوةٌ تؤيده وتناصره».

ولا ينسى الكتابُ أن يسمعنا نذير الحجاج ووعيدَه في خطبته بالبصرة ص ١٧٨:«إني أنذر ثم لا أنظر ، وأحذر ثم لا أعذر، وأتوعد ثم لا أعفوا ، والله لا آمر أحدكم أن يخرج من باب من أبواب المسجد ، فيخرج من الباب الذي يليه إلا ضربت عنقه»، وانظر تقديمه للخطبة :« ولي أمرَ العراق الحجاجُ بنُ يوسف الثقفي وكان والياً صارماً، فيه حزمٌ ، ولكن في عنف وصلابة، رأي أن القوم يتباطئون في إمداد المهلّب بن أبي صفرة، في قتاله للخوارج ، الذين كانوا قد أقضوا مضاجع بني أمية ، فقدم الكوفة عام ٧٥هـ وخطب خطبةً هدد فيها ، وبطش بنفرٍ من أهلها ، فأيقن القومُ أنه جاد في وعيده ، فتسارعوا إلى نصر المهلب ، ثم قدم البصرة فخطب فيها أيضاً

خطبة مماثلة ، ملأها بالتهديد والوعيد».

ولا ينسى أيضاً أن يسمعنا صوت أبي حمزةَ الشاري، يصف أصحابه ، ويفخر بهم على الأحزاب الأخرى ، وانظر كيف قدّم للخطبة ص ١٨٠ حيث يقول:«**قوي أمر الخوارج في أواخر عصر بني أمية ، وظهر من رؤسائهم خارجيٌ عظم أمره وقد قدم مكة على رأس جيش من الخوارج سنة ١٢٩هـ وكان أصحابه يرفعون العمائم السود على رءوس الرماح ، فأفزعوا الناس ، وكره والى مكة من قبل الأمويين قتالهم في مكة، لحرمتها فأخلاها لهم ، ودخلوها بغير قتال وخطب فيها أبو حمزةَ خطبته ، وكان قد بلغه أن أهل مكة ينتقصون أصحابه ، ويعيبون عليهم..**»

ولك أن تتصور معي عقلَ تلميذنا الناشىء عندما يقرأ ذلك (عمائم سود ، مرفوعة على رءوس الرماح) وأين ؟ في مكة المكرمة ؟ في بلد الله الحرام ، ومدينة تُخلى للغزاة من غير قتال فزعاً ورهبة . وأين ؟ وأية مدينة ؟ ومتى كان ؟ سنة ١٢٩هـ والإسلام غضٌ ولما يزل صوت النبوة في الأذان !!!

وحينما أراد أن يمجد شجاعة الغزاة الفاتحين (على ما في ذلك) وجدنا (الفارسَ الذي يتطلع للجهاد ص ١٢١) من فرسان الجاهلية ، وأدركه الإسلام ، ويحدثنا الكتاب عنه بأنه سكيرٌ لم يرتدع عن الخمر بأمر الدين ، ولا بأمر الخليفة ، فيلجأ الخليفة إلى نفيه حتى لا يفسد في الأرض ، ويهربُ من منفاه ، ويحبسه قائد الجيش ، ويسجل ذلك في شعره ، ولا نجد « من شعر المغازي والفتوح» غيرَ أبيات أبي محجن « فارس الجاهلية والإسلام الذي لا يفيق من الخمر».

وليقل تلميذُنا ، وهو إذن على حق : لا يصح لنا أن نلوم كبيراً أو وزيراً على ما يفعل ، وعلى ما يأتي من سلوك ، ما دام يؤدي عمله الرسمي كما ينبغي ، ألم يفعل ذلك المجاهدون الأولون ؟؟

ألم يقع السادة المؤلفون على أبيات لمجاهدٍ يرى أن الجهادَ فريضةٌ ويقول :

إنه لا يبغي من جهاده غنماً ولا منزلة ، وأنه يجاهد حمايةً للدين من أعدائه؟؟

ثم ننتقل إلى غرض آخر من أغراض الشعر ، قد يبدو أنه بعيدٌ عن مثل ذلك الخبث المسموم ، وأعني بذلك (الغزل) ولكن نرى هنا عجباً، حيث يختار ثلاثةً نصوص من الأربعةَ عشر من فن الغزل ، أليس في هذا ما يوحي بقيمة الغزل ، وبأنه كان شغل القوم الشاغل ؟ (إذ النسبة ١٤:٣) هذا من حيث الشكل والكم ، أما من حيث المضمون والمحتوى، فاسمع ما اختاره لعمر بن أبي ربيعة ص ١٤٨ حيث يصور قصةً غزلية من أشهر قصصه في ذلك كما يقول الكتاب ، جاء في هذه القصة الغزلية ، أن الفتيات الجميلات أرسلن إلى عمرَ من يحتال في إحضاره ، وجمعه بهن ، وعمرُ لا يعرف ، فلما كان ما كان ، صارحْتَه بأنهن أرسلنَ إليه ، ودبرنَ هذا اللقاء ، يقول عمر بن أبي ربيعة :

فلما تنازعنا الحديثَ قلنَ لي :
أخفتَ علينا ، أن نغر ونخدعا
فبالأمس أرسلنا بذلك خالداً
إليك ، وبينا له الشأنَ أجمعا
فما جئتنا إلا على وَفْق موعدٍ
على ملأ منا ، خرجنا له معاً
وقلنا : كريمٌ نال وصلَ كرائمٍ
فحق له في اليوم أن يتمتعا

ومن العجب العجاب أن يخلو الكتابُ من نموذجٍ واحد للغزل في الجاهلية، على ما كان في العصر الجاهلي من إسرافٍ في فن الغزل ، ويعترف المؤلفون أنفسهم عندما يتحدثون عن أغراض الشعر الجاهلي بشيوع الغزل ، ولكن لا يأتون منه بنموذج واحد، بينما يأتون بثلاثة نماذج من أربعةَ عشر في الأدب الإسلامي.

وهل شعر ابن أبي ربيعة هذا الذي رأيناه غزلٌ ، أم مغامرةُ فجور وفحش؟؟ ولتلميذنا المراهق ابن الخمسة عشر ربيعاً ، أن يقول في نفسه أو جهراً:«ما بالكم أيها الآباء والمعلمون ، تعيبون عصرنا؟ ما بالُ الناس يجزعون الآن حين يسمعون أن البنات يعاكسن البنين؟ لم يفزعون ويستغربون ويحوقلون ويستعيذون ؟ ألم يكن ذلك في الأرض المقدسة ؟ ولما تزل ريح النبوة تملأ بطاحها؟ ألم يحدث ذلك بين ظهراني الصحابة والتابعين؟؟»

ومما يتصل بالغزل - وهو من أعجب العجب - أنهم يقولون ، عندما يتحدثون عن الغزل وشيوعه في العصر الجاهلي : «إن من دواعي شيوعه أن العربي الجاهليَّ ذو حس رقيق ، يدرك الجمال» أما في العصر الإسلامي ، فقد شاع الغزل في الحجاز « لأن أهله غُلبوا على أمرهم في السياسة ، فأغرقوا فشلهم في الغناء والغزل ، وهيأ لهم بنو أميةَ ذلك ، فأمدوهم بالمال حتى الثراء ، كي يشغلوهم عن منازعتهم »

أنضحك أم نبكي؟! يتغزل الجاهلي فيقال : ذو حسن مرهف ، وذواقة للجمال ، ويتغزل المسلم ، فيقال : يُغرق همّه وينسى فشله ، أو يُغررُ به ، ويُصرَف عن معالي الأمور إلى سفاسفها، وهكذا يُصبح الأمرُ الواحد مذمةً يوماً، ومدحاً وفضيلة يوماً آخر.

هكذا في كتاب واحد بمنهجين ومبدأين ، ولكن هدفٌ واحد تمجيدٌ للجاهلية، وتشويهٌ للإسلام ، فهو شيء واحد ، فكلما كانت الجاهليةُ أكثرَ نوراً وطهارةً ، كلما بدأ أثر الإسلام حائلا زائلا.

ومما يلفت النظرَ حماسةُ المؤلفين الواضحة ، التي تظهر على أطراف أقلامهم ، فلا يكتفون بالمحتوى والمضمون ، بل من آن لآخر تندُّ منهم كلمةٌ تكشف عن تحمسهم وإخلاصهم لهدفهم ، ففي ص ٩٣ يتحدثُ الكتاب عن التطور الذي أصاب أغراض الشعر ، فيقول عن الشعرالسياسي:« ولم يكن الجاهليون يعرفون هذا اللونَ من الشعر ، وذلك لارتباطه بنظام الدولة ، وقيام الأحزاب السياسية بين ظهراني هذه الدولة ، واصطراعها العنيف في سبيل الحكم، فكان لكل حزب سياسي شعراؤه الناطقون بلسانه».

انظر . هكذا « اصطراعها العنيف في سبيل الحكم» لا يكفي أن يقول تنافس ، ولا ترضيه لفظة(صراع) ولا حتى تصارع ، بل (اصطراع) ، ولا يشبعه ذلك بل يقول مؤكداً:« اصطراعها العنيف » ولا يترك موضوع الصراع، بل يَجبّه به القارىءَ ويسجلُه عليهم «في سبيل الحكم» واسمعوا يا أبناء تاريخ أمتكم واعتزوا به !!!

ولا يقولن أحد : إنني ألتقط هذه الصورَ من بين ما في الكتاب وهو كثير، قد يبدو ذلك إلى جواره أمراً هيناً، أي أنه صوّر العصر بما له وهو كثير ، وبما عليه وهو قليل.

لا يقولَن أحدٌ ذلك ، فحاشا ، أن أصنع مثلَ صنيعهم .

إن عدد النماذج في الشعر الإسلامي في الكتاب ثلاثة عشر نموذجاً، لم نترك منها إلا ثلاثة: قصة كرمٍ للحطيئة ، وفيها حديثٌ عن سوء خلق الحطيئة ، وسوء بطل القصة ، وفقرٌ وجوع ، وإن صورت الكرم ، وقصيدة لحسان بن ثابت رضي الله عنه ، وفيها أيضاً صراع ونضال .. وهكذا على طول قرن ونصف تقريباً من يوم البعثة إلى يوم ذهبت بنو أمية، لا نرى إلا حروباً وصراعاً، وفتحاً وغزواً، ونزاعاً، وفرقا ، واتهاماً ودفاعاً، من يصدق هذا ؟؟ من يقول هذا ؟؟ مرة ثانية نصرخ : أتدبيرٌ هذا أم مصادفة ؟؟ أهي مصادفة أن نجلو تاريخ الجاهلية . ونُطهِّرَه ، ونقدمه لأبنائنا ، ثم نشوّهَ تاريخ الإسلام بالاجتراء والتجهيل ونجرعه لتلاميذنا ؟؟ إنه تدبير أحكمت حلقاته من قبل ، ووقع فيه قادةُ الرأي والبحث والثقافة في بلادنا ، إلا من رحم ربك، وقليلٌ ما هم .

إن في شعر الجاهلية ما تحمرّ له الوجوه خجلا، وفي فُحش أدبها ما لا يُمكن أن يُقرأ . أو ينطقَ به . وفي حِكَمها وأمثالها ما يدل على لؤم الطبع، وخسة النفس ، (والأمثلة كثيرةٌ ، وحاضرة في الذهن ، ولا نثقل بإيرادها) بل نعف عن ذكرها، فلماذا يُضرَبُ عن ذلك صفحاً ؟؟ ولمَ يُنسى كل ذلك ؟؟ أينسى هذا أم يتناسى ؟ بحجة أن من حق أجدادنا عربِ الجاهلية أن نرفعَ صورتهم في إطارٍ من البهاء والجمال، ليزداد اعتزازُ الأبناء بهم(وقد لا

نعترض على هذا المنهج) ولكن ما يصيبُنا بالدّوار أنه يطبق على العصر الجاهلي وحده .

أما عند العصر الإسلامي فتدركهم روحُ العلم والأمانة العلمية والمنهج أو قل (المنهش)(٢)، فلابد أن يعرف التلميذُ كل شيء ، ويا ليتهم يكونون أوفياء للمنهج، بل يحجبونَ عن التلميذ أفضل ما في التاريخ الإسلامي ، ويعرضون عليه ما يريدون ، فهي عملية تشويه بالبتر والحجب ، والاجتزاء والتجهيل .

ولقائل أن يقول : وما ذنبُ واضعي المنهج ومؤلفي الكتاب ؟ أو ليست هذه حقائق ؟؟ أتنكر صحة هذه النصوص ؟؟ أتنكر نسبتها إلي أصحابها؟؟ أتنكر مدلولها التاريخي ؟؟ أنضع رأسنا في الرمال ؟؟

وحينئذ نرد سائلين : أهذه كل الحقائق ؟ أهذه كل الوقائع ؟ بل أهذا هو التفسير الوحيد لهذه الأحداث ؟ أليست هناك آراء في هذه المواقف ؟ ثم أهذه هي السن المناسبة لعرض هذه الحقائق ؟ وبفرض أن هذا تاريخٌ ، فما شأنكم أنتم يادارسي الأدب ومدرسيه ؟ أهذه وحدها هي النصوص الأدبية لهذا العصر؟ أئذا جمعنا كل أدب ذلك العصر لا نجد إلا هذه النصوص أو إلا هذه الأغراض؟

أمامي الآن كتبٌ مما كان يدّرس في مدارسنا قبل مطلع هذا القرن العشرين، وفيها هذه (النصوص) بعينها، ولكن -وبكل أسف- فيها نصوصٌ أخرى، تحمل ملامحَ وخطوطاً غير هذه ، لصورة هذا العصر المتهم.

فإذا قلنا: إن تلك الكتب كانت ، من عصر (دنلوب) الأصيل ، أو (الدنالبة الأتباع ، فما بالنا اليوم في عصر الوطنية الصحيحة) نقع على مثل هذه النصوص دون غيرها؟ أم أننا بعد أن فككنا أسرنا من قبضة

---

(٢) مع الاعتذار لأديب العربية عباس محمود العقاد ، فهو صاحب هذا التعبير (المنهش) حين كان يهزأ بهؤلاء الأدعياء ، الذين يشقشون بهذه الألفاظ الجوفاء ويتخذونها قناعاً لإخفاء جرائمهم.

(دنلوب) وقعنا في يد (قرامطة الفكر وتتار الثقافة).

إنها مؤامرة ، نسجت خيوطها وأحكمت ، منذ كتب الله على هذا البلد أن يتولى أمرَ ثقافته وتعليمه تلامذته المستشرقين ، والمستعمرين ، والمستغربين .. وحين بدا لنا أننا خرجنا من قيودهم كنا قد وقعنا في يد هؤلاء القرامطة الذين مدوا ألفَ ذراعٍ وذراع مطبقين على منابر الثقافة ومنابع الفكر.

والله وحده المستعان على كل بلية.